# وعي الذات والنضج الثوري لدى الطفولة
# في رواية طيور في الظهيرة لمرزاق بقطاش

✍ د/شريط بدرة
جامعة وهران 2

تعتمد دراستنا على قراءة النص قراءة سيميائية، انطلاقا من تفتيت البنية النصية إلى وحدات سردية، وكذا تحديد البرنامج السردي وفق الحالات والتحويلات التي تحكم بنية الخطاب السردي"[1]، وبما أنّ السيميائية تتحدد كلغة ثانية(ميثالغة) بالنسبة إلى عالم المعنى الذي تتخذه موضوعا للتحليل"[2]، فإننا نهدف من هذه الدراسة إلى تتبع الدلالة السرديّة في نص طيور في الظهيرة.

قبل الدخول إلى دراسة عالم الطفولة وعلاقتها بالثورة والكفاح المسلّح، علينا الوقوف أولا على مفهوم الذات لغة واصطلاحا.

**فالذات لغة**: ذات بالإنجليزية self و بالفرنسيةle soi ،وورد في كشاف الاصطلاحات والفنون بمعنى:
"يطلق على معان منها الماهية بمعنى مابه من الشيء هو وقد سبق تحقيقه في لفظ الحقيقة . وعلى هذا قال في الإنسان الكامل :إنّمطلق الذات هو الأمر الذي تستند إليه الاسماء والصفات في عينهالا في وجودها .فكل اسم اوصفة استندإلى شيءهو الذات سواء كان معدوما كالعنقاء أوموجودا"[3]

يشير معنى الذات في المعجم الفلسفي إلى "النفس والشخص، يقال ذات الشيءنفسه وعينه، والنسبة إليه ذاتي ،والذات أعم من الشخص ولها عدة معاني "[4]

أمّا من الناحية الاصطلاحية، فيرى علماء الاجتماع أنّ الذات "هي بناء يفترض وجوده باعتباره أساس تحقيق التكامل والاتصال بين خبراتنا جميعا، أي الأساس الذي يجمع بينها في كل منظم ومتصل"[5] ومن الجانب النفسي فترجع إلى سلوك الإنسان وتصرفاته حيال موقف ما ،أي أنها تعبر عن "نواة الشخصية الداخلية أو أنها بداية الوعي أو أنها خائرة الوعي الذاتي الفردي ونظام تصورات الإنسان عن نفسه"[6]

يرتبط مفهوم الذات عند علماء الأخلاق على "وعي الإنسان لذاته كشخصية لمكانته في نشاط الناس الاجتماعي المشترك. وبفضل وعي الذات يكتسب الإنسان القدرة على مراقبة الذات وإمكانية التوجيه الهاذف لتصرفاته، وضبطها وتربية الذات، وفي صلب وعي الذات عند الشخصية تقوم قناعتها وموقفها الذاتي منها"[7]

من خلال قراءتنا لرواية طيور في الظهيرة، تظهر معالم الذات في شخصية مراد، المشبّعة بالروح الوطنية، والانتماء، وكرهه للآخر المتمثل في المستعمر؛ الذي يحاول طمس الشخصية الجزائرية وتخريب الذات العربية.

يقدّم الروائي بقطاش شخصيات كثيرة، ومتنوّعة في طيور في الظهيرة (عربية وأوربية)؛ إلاّ أنّ النص السردي يركّز على شخصية (مراد) الطفل النشيط، المتمرّد، المحب للوطن وللحرية يسعى دوما إلى البحث عن تفسير لما يدور من حوله من أحداث في الحي، والأماكن المجاورة له؛ إنها ذات تعجّ بالتساؤلات، والارتباك والفوضى.

وما يلاحظ في شخصية مراد هو ارتباطه القوي بالبحر والغابة، إذ" كانت تجمعه علاقة قويّة لا تنفصم عراها أبدا مع الثلاثي المقدّس –الأم، البحر، الغابة-الذي أصبح العنصر الحاسم في تنقلاته وتحركاته بين الواقعين الاجتماعي والطبيعي، وبين حقيقة نفسه وانطباعه من الثورة" [8]

تبدأ الرواية بمشهد غريب، ألا وهو التحرّك العسكري المخيف في أرجاء الحي، إثر حادثة اغتصاب الغجرية من قبل شبان مستهترين من عين المكان. وبعد هذه الحادثة، تظهر لدى مراد بعض الشكوك والتساؤلات حول ما يجري من أحداث " وقبل شهر قام جماعة من فتيان الحي بالاعتداء على عرض فتاة غجرية، كانت هذه الفتاة قد تعودت القدوم إلى الحي لبيع قطع من القماش إلى النسوة وقد استهوت بمشيتها أربعة من الفتيان فأخذوها عنوة إلى الغابة حيث ضاجعوها، ولم تستطع الشرطة إلقاء القبض عليهم إلا بعد أسبوع في أعلى الجبل المقابل للحي"[9]

وفي ملفوظ سردي آخر يشير الراوي إلى وقوع الخيانة والتبليغ على الفتيان" وثارت ثائرة الحي، وهدّد العديد بقتل الخائن الذي أبلغ عن الفتيان الأربعة فقد رأى معظم سكان الحي بأنّ الغجرية فتاة فاسدة"[10]

من خلال الملفوظين السرديين تظهر صوّر /المؤامرة/والخيانة/ضد الفتيان الأربعة، والاشتباه بهما، ممّا يؤدي بأحد الأجانب إلى التبليغ عنهما دون معرفة الحقيقة.

ومن هنا، يبدأ مراد بالبحث عن إجابة عن ما يدور بتفكيره حول قضية الفتيان، حيث تتضح ملامح الوعي والإحساس بالذات والانتماء من نفوره الشديد من الفرنسيين وكرهه للمستعمر، ورفضه للآخر "فهو عندما بدأ يفهم بعض الحقائق في الحياة أدرك أنّ هناك فرقا بين العرب والفرنسيين لقد قيل له دائما أنهم مستعمرون احتلوا البلاد بالقوة، إنه الوحيد الذي يحفظ عددا كبيرا من الأناشيد الوطنية "[11] وفي ملفوظ سردي آخر يقول مراد " تحيا النجمة ، ويسقط الصليب"[12]

يتبيّن لنا من خلال الملفوظات السردية، انتماء مراد لقضية الوطن، وحرصه الشديد على فهم الوضع السياسي -وتفسيره لكلمات سمعها لأول مرة من الحي (الثورة، والاستعمار، الاستقلال، نوفمبر) -ونبذه للآخر، فيتجلّى نضوجه الفكري والثوري في تمسكه بهويّته الجزائرية وبعروبته، وحفظه للأناشيد الوطنية، ورغبته في البحث عن حقيقة استغلال الوطن والسيطرة على ممتلكاته.

وخلال البحث عن الحقيقة، يبدأ مراد في مراقبة الأوضاع، فيلمح تجمع الشرطة في الحي لأجل قضية الغجرية ومعاقبة المشتبه بهم "أبصر مراد بشرطين يتقدمان نحو السيارة الرمادية الكبيرة مباعدين فيما بينهما، وهما على استعداد لإطلاق النار في أية لحظة، ثم أبصر بالباب الخلفي للسيارة ينفتح، فيخرج منه الفتيان الأربعة"[13]

يستعرض السارد الوضعية المزرية التي يمرّ بها الفتيان الأربعة بعد القبض عليهم، فيصف حالهم في وسط الحي "كان الفتيان الأربعة قد وضعوا وسط الساحة، الواحد قرب الآخر. كانت القيود في أيديهم، وكانوا أربعتهم مطأطئين رؤوسهم خجلا، وأحسّ مراد بأنهم حزينون فعلا فالغابة التي ملأوها من قبل بحيويتهم تستقبلهم اليوم وكأنها لم تعد تعرفهم.. ثم رأى الغجرية وهي تقوم بحركات سريعة، وتشير إلى الفتيان الأربعة واحدا واحدا، بينما كان الشخص الأنيق يضحك"[14]

"..توقف الطفل هنيهة وهو يلهث، ثم قال بسرعة:" لقد حكموا عليهم بعشر سنوات سجنا"، وواصل جريه عبر أزقة الحي ليخبر الآخرين وساد الصمت لحظات أحس خلالها مراد بالدموع تظفر في عينيه، لكنه تمالك نفسه. عشر سنوات كاملة من العقاب هذا هو الظلم عينه"[15]

يبدو مراد من خلال الملفوظات السردية منزعجا حزينا، وحاقدا على ما تفعله الشرطة من ظلم واحتقار للفتيان، كونه يشعر بأنّ أحد الفتيان (عبد الله) المشتبه بهم بريء، لا يمكنه

فعل ذلك، أمّا بكاء مراد يشير إلى إحساسه بالقهر والإهانة. والعجز. والذل الذي يعيشه الشعب الجزائري.

من هنا، يستعد مراد لتفقد الحي، وما يجري عليه من تغيّرات، متسائلا عن سبب زيارة الرجل الغريب للحيّ "فمتى بفهم الجيران هذا التغير الذي طرأ على الحي، ويكفوا عن التخاصم فيما بينهم؟ بل أنّ مراد بات يسائل نفسه متى يشرع ذلك الزائر الغريب في توجيه الانذارات إلى الأسر حتى تكف عن هذرها وبذاءة ألسنتها؟ وقر رأيه آخر الأمر على فكرة واحدة لا يمكن أن تتغير، وهي أن هذا الزائر الغريب لا يمكن أن يكون إلا مبعوثا من قبل المجاهدين. وإلاّ فكيف يمكن تفسير طاعة سكان الحي له؟ إن إمام المسجد نفسه لم يستطع أن يجمع شملهم ويغير من آرائهم "[16]

"في حين أنّ هذا الزائر الغريب تمكّن في ظرف أيّام معدودات أن يفرض سيطرته عليهم أجمعين، وهذا يعني أنّه قادر على استعمال القوّة ان اقتضى الأمر"[17]

يحتل الزائر الغريب موقع الفاعل المحرّك /manipulateur في برنامج سردي programme narratif يهدف إلى تحريك ساكني الحي لدعم الثورة، وتحذيرهم، وتوجيههم إلى الكف عن إفشاء أسرار المجاهدين، وما يجري في الحي من تغيرات. وصراعات، كما تتبدّى علامات الوعي بالثورة، والتفطن لدى مراد في ملاحقته، ومراقبته للزائر الغريب، كونه شخصية محترمة يتميّز بحضوره القوّي في أوساط الحي.

يواجه مراد الكثير من التساؤلات، والالتزامات والهواجس، منشغلا في البحث عن الحقائق، وهو يتجوّل عبر الحي نجده شارد الذهن في مسألة الحرب والثوّار، فيزداد قلقا، وتخوّفا كلّما مرّت بجانبه شاحنة عسكرية، و"سرعان ما بلغ مسمعيه شخير شاحنات عسكرية تعبر الحي، فخفق قلبه. وعادت صورة العسكري صاحب النظارات ترتسم أمام عينيه.ثم سمع بعض الخطوات المهرولة في الزقاق، وإذا به يبصر صديقه محمد والكلب الاعشى يلاحقه.. وهو يقول بصوت كله هذيان: "السينغاليون. إنهم السينغاليون" وسرت الرعشة في أطراف مراد. هو الآخر يخاف من السينغاليين، أنهم يبدون هادئين، لا يمسون أحدا بسوء، ولكنّهم مخيفون فعلا. وتسمرت عيناه في أعلى الزقاق، فرأى بعض الجنود السينغاليين وهم ينزلون بخطوات عسكرية منتظمة"[18]، إلاّ أنّهم بعد وقت غادروا المكان، فهدأ مراد وبدت على محمد علامات الارتياح، ولكنّه أخاف مراد بما سيفعله السينغاليون لرؤية الدماء، وعن انفعالهم، و"قصّ عليه كيف أنّ المجاهدين ألقوا القبض ذات يوم على جماعة من العساكر السينغاليين،

وذبحوهم.. إلاّ أنّ مراد اشمئز لمثل هذه الحكاية، فقد تخيل في يومه ذلك كثيرا من الرؤوس المذبوحة. وهو لا يؤمن بأن المجاهدين يظلمون أحدا"[19]

تفرز الملفوظات السردية صور/ الحيرة/ و/الرّهبة /من جهة، وصور/ الثقة / و/الاحترام /من جهة أخرى، حيث يثق مراد في نزاهة المجاهدين، وإيمانهم بالقضية، ولا يمكنهم أن يصلوا إلى مستوى الوحشية، والفظاعة في التنكيل بالجثث. ممّا يوحي بمراد إلى وعيه وإيمانه بقضية الوطن، والوقوف إلى صف المجاهدين وإنصافهم، وعدم الشك فيهم.

ينتقل بنا السارد إلى الدخول المدرسي، ويرسم لنا أجواء الفرحة، والاستعداد النفسي للدراسة، حيث يصف لنا صورة مراد التي تتسم بالإرهاق والتعب من جراء التفكير في الثورة وعن مصير المجاهدين "قام مراد من فراشه قبل الوقت المعتاد كانت عيناه منتفختين، فقد قضى جزءا طويلا من الليل يبحلق في العتمة ويفكر في المجاهدين، وفي أماكن اختبائهم، ويتخيّل المعارك التي تنشب في أعالي الجبال"[20].

يُظهر الرّاوي حماس مراد للدخول المدرسي، فهناك سيعرف الأخبار عن الثورة والمجاهدين، وفي الوقت نفسه يشعر أنه سيسجن داخل المدرسة، لا حرية بعد اليوم ولا اجتماعات، ولا رؤية البحر والغابة كما تعود.

ومع ذلك، فلقد حدّد الروائي "بقطاش" جوانبا إيجابية من شخصية مراد كاجتهاده في المدرسة، ومثابرته، وحرصه الشديد على تعلم اللغة الأم والتزامه بها، وتمسكّه بهويّته العربية " فهو الوحيد الذي يدرس باللغتين العربية والفرنسية، أمّا غيره من الاطفال، فدراستهم كلّها باللغة الفرنسية، وهذا يعني أنّه الوحيد الذي له القول والفصل في مسائل اللغة العربية بين أطفال الحي"[21]

لقد قدّم الروائي بقطاش الكثير من السمات البارزة في شخصية مراد، المتمثلة في عزيمته وإرادته التي لا تتوقف في البحث عن حقائق الثورة، وعن نشاطه، وتفاعله مع الأصدقاء وما يجري في الحي، والأماكن المجاورة من مستجدات وتحوّلات. إذ تتجسّد نباهته، وتفطنه في ملاحظته الدقيقة لتصرفات الأوربيين، وكذا حذره الشديد في عدم كشف أسرار الثورة أمامهم.

لقد أدرك مراد خطورة الوضع، من خلال مواقف الأوربيين للعرب، والتي تتسم بالكره واللؤم، كما يكشف مراد أيضا عن أخلاق الأوربيين المزيّفة وعن مشاكلهم وصراعاتهم مع

بعضهم بعض "لم يكن يدري أنّ الأوربيين يتصارعون فيما بينهم. لقد سمع الكثير عنهم من المدح، ولكن هو ذا الآن يرى بأم عينه ما يجعله يكذب كل الأقاويل التي سمعها عنهم "[22].

"..ولم يستطع الاستغراق في تفكيره، فقد كان نوربير قد بدأ يركل الباب بقدمه في عنف، كأنه ثور هائج، ولسانه لا ينقطع عن السب والشتم. وكانت والدة روني تصر خفي الداخل. وتمنى مراد في تلك اللحظة أن لو كان روني وبقية أخوته في الدار لتتطور المعركة، وتأخذ أبعادا أكبر، فوالد روني كبير السن لا يقوى على مصارعة نوربير، هذا الثور الجامح، وعلى كل أنه يشفي غليله الآن من والد روني ذلك الحقود.."[23]

يتقدّم مراد بوصفه فاعلا/شاهدا على تحامل الأوربيين، وانفعالاتهم، واحتقارهم بعضهم بعض، ممّا يوحي على سلوكهم غير الأخلاقي. على عكس ما كان يظن أنّ العرب الأكثر غضبا وانفعالا؛ إلا انّ هذه الحادثة أثبتت له ملامح الأوربي عن قرب.

وعليه، فإنّ صوّر/الكره/والضغينة/، التي يحملهما مراد للأوربيين، تشكّل مسارا صوريا يشير مباشرة إلى نبذ الآخر (المستعمر)المتسلّط، إذ يكشف الرّاوي عن أخلاقهم الزائفة، وسخطهم، وصراعاتهم الدائمة مع بعضهم بعض. وعن ظلمهم للشعب الجزائري وقهره، ومنعه من تعلّم اللّغة الأم، حيث يعيش تحت سلطة الإجبار، والضغط. لتعلّم لغة الآخر، والالتزام بالقوانين الفرنسية وعدم مخالفتها.

ولقد كان من بوادر الوعي والنضج الثوري، ومشاعر الوطنية لدى مراد هو مشاركته في الإضراب العام الذي وقع في المدرسة، والانضمام إلى صفوف الكبار، متمثلا في الكف عن تعلّم اللّغة الفرنسية، ممّا حرّك مشاعر التلاميذ، وأدّى بهم إلى التضامن والاحتكاك بالمدير والمعلمين لأجل الالتزام بقرار رفض تعلم لغة العدّو (المستعمر)، والذي تسبّب في خلق فوضى داخل المدرسة، وإلى ارتباك المدير والمعلمين.

"ودخل ساحة المدرسة الواسعة، فأبصر بالتلاميذ منكمشين ناحية اليمين، وبالمعلمين، والمعلمات يحاولون تنظيم الصفوف دون جدوى.."[24]

"كان المدير واقفا عند مدخل أحد الأقسام الدراسية في الطابق الأول. وكان يتحدث بهدوء مع إحدى المعلمات، فيم راحت هي ترفع يديها بعصبية. وخيل لمراد أنها تريد أن تصفع المدير. غير أنه لم يستغرب موقفها، فالمدير عربي، وكل شيء ممكن. وفي ناحية اليسار. كانت إحدى المعلمات تحادث زميلة لها بكلمات سريعة، ثم تنظر ناحية الاطفال، وتشمخ بأنفها، وهي تشير إليهم باحتقار. وأحسّ مراد بالغصة." [25]

إذا دققنا النظر في الملفوظين السرديين، نلاحظ تحوّل أو انتقال التلاميذ من وضعية رضوخ وخوف، وضعف إلى وضعية سردية جديدة، وهي الاتحاد والتضامن من أجل التغيير الجذري للوضع الراهن، المتمثل في رفض تعلم اللغة الفرنسية؛ ممّا يدلّ على إرادة الأطفال وتشجعهم وتكاثفهم من أجل تنفيذ قرار المجاهدين.

تعدّ وصلة مراد بالتلاميذ الكبار عاملا حاسما للرغبة في التغيير إلى وضعية سردية جديدة، وتمسكه بالمجموعة كان بهدف الحصول على معلومات كثيرة حول المجاهدين، ويظهر ذلك من خلال المتن السردي".. فالأفضل له أن ينضم إلى إحدى الجماعات، ويلتقط ما قد يدور فيها من أخبار. ولاحظ وهو في مكانه، أنّ عددا من المعلمين، والمعلمات كانوا قد صعدوا إلى الطابق الأول، وراحوا يستعجلون المدير لكي يعمل على ادخال التلاميذ إلى أقسام الدراسية، حركاتهم كانت عصبية، ورؤوسهم تهتز في عنف.."[26]

"ثم أبصر بأحد التلاميذ الكبار ينتقل من جماعة إلى جماعة وهو يهمس ببعض الكلمات وعندما اقترب من التلاميذ الواقفين بالقرب منه، سمعه يحثهم على عدم الدخول إلى الأقسام الدراسية، والامتناع عن دراسة اللغة الفرنسية، ثم قال لهم أنّه يجب الاكتفاء بدراسة اللغة العربية، أمّا الحصص المخصصة للغة الفرنسية، فيجب مقاطعتها. وخفق قلب مراد خفقانا سريعا. هذا ما كان ينتظره من المجاهدين فعلا" [27]

يشكّل التلاميذ الكبار **الفاعل المحرك/والمنفذ** في برنامج سردي يسعى إلى الدخول في وصلة مع قرار المجاهدين، وخرق نظام المدرسة؛ ممّا يبرز قدرتهم على الفعل وكفاءتهم في تسيير وتحريك الموضوع؛ إذ يأخذ التحريك شكل جدل وصراع"[28] فيكشف عن صورة الآخر من عنف وشتم، وتخويف للتلاميذ. وإرغامهم على الدراسة والالتزام بسلطة المدرسة. وفي الوقت نفسه يحيل أيضا على قوة التلاميذ، وثورتهم، وإصرارهم على تحقيق رغبتهم في إقصاء لغة الآخر، وتمجيد لغة الأم والحفاظ على الهويّة العربية. ويمكن أن نفهم هذا الوضع المتأزم المحمّل بالقلق،/ والإرادة/ و/التردد،/والعزيمة،/ والغضب/ والتوتر، ويتضح ذلك من خلال المربع السيميائي الآتي:

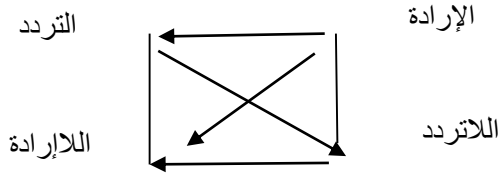

إضافة إلى ذلك، يصوّر السارد فعل المدير تحت إلحاح المعلّمات "ولم يمر وقت طويل حتى كان المدير يقف على شرفة الطابق الأول، تحت الحاح المعلمين والمعلمات، ويصفق بكلتا يديه، مخاطبا التلاميذ . لكن هؤلاء تجاهلوا حركاته، وزادوا من لغطهم، وتساءل مراد في ذات نفسه كيف يخضع المدير لأوامر المعلمين والمعلمات؟ غير أنه عذره في قرارة نفسه، فهو مرغم على ذلك لأنه جزائري، ومعظم المعلمين والمعلمات فرنسيون. اذن جزائري يرضخ للفرنسي؟.."[29]

من خلال الملفوظ السردي، بدأت تتشكّل عناصر كفاءة التلاميذ الكبار، ومراد، وذلك بالتمرّد على قانون المدرسة، الذي يرغمهم بتعلّم اللغة الفرنسية، حيث يأخذ هذا الفعل، من جهة قوة وعزم التلاميذ الكبار، ملزمة/ الوجوب/و/الإرادة/و/ القدرة على الفعل؛ الدالّة على حريتهم وإصرارهم على تنفيذ قرار المجاهدين. وأيضا يوحي ذلك بممارسة فعلهم الإقناعي على المدرسة، ومن جهة أخرى، تشير إلى افتقار المدير وخضوعه للمعلمين ولسلطة المستعمر، وعجزه أمام رغبة التلاميذ. ويمكن أن نلاحظ هذا الوضع بوضوح في مربع /القدرة/الآتي:

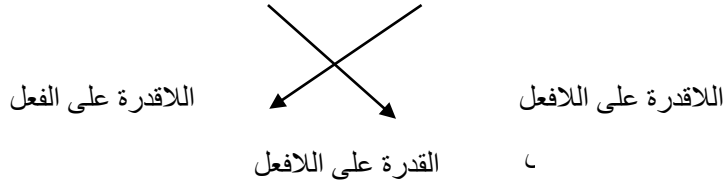


استنادا إلى هذا الملفوظ السردي، نلاحظ رغبة المدير في التحكم، وحل القضية، إلاّ أنّه يجد نفسه أمام موقفين غريبين؛ بين رغبة المعلمين، التي تعتمد على القوّة والإرغام والتهديد، وبين رغبة التلاميذ التي تأخذ صوّر التمرّد والعند. " .. بينما ندت عن المعلمين والمعلمات حركات ساخرة، تستصغر من شأن المدير، وتعيب عليه نزوله بين التلاميذ، بدلا من اصدار أمر صارم. وأبصر مراد بالمدير يمشي بين جماعات التلاميذ، وهو يحادثهم بكلام يكاد يشبه الهمس. ولم تصدر عن التلاميذ أية ردود، وعندما بلغ وسط الساحة، جاءه الجواب من أحد التلاميذ الكبار الجواب كان طبيعيا غير مفتعل، فقط اشترط ذلك التلميذ أن يدخل الجميع الأقسام الدراسية لمزاولة التعليم باللغة العربية فقط، أما اللغة الفرنسية فانه من الحرام أن يتعلمها التلاميذ بعد اليوم. "[30]

"لاحظ مراد أنّه من الطبيعي أن يبادر التلاميذ هذه المرة إلى تنظيم صفوفهم، إلاّ أنّ مسألة الامتناع عن دراسة اللغة الفرنسية ظلّت على حدّتها. أنه لا يمكن الرضوخ لا للمدير ولا للمعلمين والمعلمات. وقال في ذات نفسه أنّ التلاميذ سيكونون خونة ان هم رضخوا. ونزلت احدى المعلمات من الطابق الأول وفي يدها قائمة بأسماء التلاميذ الذي تشرف عليهم. راحت

تتلو الأسماء واحدا واحدا والتلاميذ لا يقتربون منها، ولم تجد بدا من السب والشتم آخر الأمر فبادر المدير اليها وإنتهرها لكن نظرات المعلمين الحاقدة وقعت عليه من كلّ صوب"[31]

يرسم لنا الرّاوي ملامح الغضب والحالة النفسية، والتعصّب لدى كل من المدير والمعلّمين، ممّا يحتدم الصراع بين رغبتين متناقضتين رغبة المعلّمات في تدريس اللغة الفرنسية، ورغبة التلاميذ الكبار ومراد في رفض تعلّم لغة الآخر، والذي يتماشى مع قرار المجاهدين. حيث تظهر تجلّيات الصراع من خلال تهديد المعلمة اليهودية للتلاميذ لـ" تخاطب التلاميذ بصوت حاقد: " ولم لا تريدون تعلم اللغة الفرنسية؟ إنّكم جهلة، ولم هذا العناد؟ ". ووقع هذا الكلام على التلاميذ مثل ماء بارد، فجعلوا ينظرون اليها دون أن يستطيعوا الإجابة ثم تقدمت بين الطاولات وهي تنتهرهم بعنف"[32]

يفرز هذا المقطع السردي مظاهر التهديد والوعيد، وكذا التعنيف، كما تتصف المعلمة بوصفها فاعلا مضادا تحاول عرقلة مسار التلاميذ ومراد، وذلك بالضغط عليهم، إلاّ أنّ مرادا يستنكر، ويتشجّع، ليرد عليها بكلّ قوّة وبلا خوف، ممّا يبرهن على استعداده النفسي والفكري في مواجهة المعلّمة" لأنني لا أحب الفرنسية"[33]؛ لكنها تعترض سبيله لتنهال عليه بصفعة قوية على خدّه، "فيسيل الدم من أنفه وتراجعت المعلمة وهي تنظر إلى سحنة مراد، والذم الراعف منه. ووقفت مرتبكة فوق المصطبة، قم أنّ مراد قام من مكانه، واندفع نحو الباب، والدم يسيل على شفتيه.."[34]

تؤدي هذه الوضعية المضطربة التي وصل إليها مراد والتلاميذ إلى النضوج والشعور بالأنا، وعدم الرضوخ إلى المعلمين، ممّا يعلنون اضرابا عن الدراسة، وعدم تعلّم اللغة الفرنسية، والانصياع لأوامر المجاهدين.

ما إن وصل مراد إلى بيتهم، وهو يحاول مساندة والدته الحامل في شهرها الأخير، وإذا به يسمع شخير الشاحنات العسكرية بالحي "وبدأت رجلاه ترتجفان، وأحسّ بحلقه يزداد جفافا، حتى أنّه ما عاد يقوى على التنفس. وفي تلك اللحظة زادت صرخات الأطفال حدّة، فأدرك أنّ العساكر بدأوا يخرجونهم من ديارهم، ويأخذونهم نحو الشاحنات حتى يسهل عليهم نقلهم إلى المدارس. ..لقد جاء دوره هو، فما الذي ينبغي أن يقوم به؟"[35]. شعرت والدته بما يرتسم على وجهه من خوف وقلق، فأخذته إلى جانبها، تترقب ملامح وجهه؛ على الرغم ما تمر به من آلام المخاض، واضطراب، وقلق، خوفا من دخول العساكر إلى بيتها، والتفكير في كيفية التصرف معهم وهي في هذه الحالة، إلاّ أنّها طلبت من مراد فتح باب الدار" لكنّه لم يكد يخرج من

البيت الى فناء الدار، حتى فوجئ بجنديين سنغاليين، يندفعان نحو الداخل، فارتبك في وقفته تلك، بينما تحركت يده نحوهما بالبطاقة الوردية. لم يكن في تلك اللحظة ليقوى على الكلام، بل أنّه كان من المستحيل أن يصدر عنه صوت، حتى وان كان صراخا"[36].

"تقدم السنغاليان منه. كان أحدهما، يبتسم، وقد التمعت أسنانه البيضاء، بينما اندفع الآخر نحو السطح، وعاود النزول منه، وهو يقول بأن لا أحد هناك . بدرت عن السنغالي الذي كان يبتسم حركة جانبية ثم سأل مراد { هل هي أمك؟} ولم يجبه بأية كلمة. وعاود السنغالي مخاطبته فسأله اذا ما كان سيذهب إلى المدرسة. فهزّ مراد هذه المرة رأسه مجيبا بأن نعم وكانت دهشته قوية عندما عاد الجندي السينغالي يسأله اذا ما كان يحفظ سورا من القرآن الكريم ..إذن هو سنغالي مسلم"[37].

ينفتح الملفوظ السردي الأول على تشكّل خطابي يدلّ على الخوف، والهلع من العساكر الفرنسيين، والتفكير في النجاة منهم في حين يشير الملفوظ السردي الثاني إلى الدهشة واستغراب مراد من السلوك الإيجابي الذي التمسه في العساكر السنغاليين، وتصرفهم الذي تغلب عليه الإنسانية والسماحة، ليشعر مراد بالراحة النفسية والطمأنينة.

وبعيدا عن أحاديث الثورة والعساكر والمجاهدين، قرّر مراد أن تكون له أيّام للعب مع أصدقائه في الغابة، إلاّ أنّه كالعادة يصادف عسكريا يرتدي بزة عسكرية فرنسية، وليفجأ مراد بأنّه عسكري جزائري، إذ يقاطع أحمد كلّ تساؤلات مراد، حول هويّة هذا الرجل.وذلك، مما شهده من تصرف غريب، وحزن عميق يظهر في ملامحه وصوته، مؤكدا له بأنّ هذه الشخصية ثورية، متخفيّة في لباس عسكري فرنسي.

يبدو مراد دقيق الملاحظة، يتفقد وجوه الحي مع الصباح، ليجد علامات القلق والارتباك ترتسم على وجوه الناس، ممّا جعله يفكر مليّا في سبب هذا الغموض والصمت الرهيب؛ حيث يذهب رفقة محمد وأرزقي إلى الغابة بعدما سرقوا حبة الجوز الهندي من الحانوتي. وفي وسط الغابة، يلمح مراد مقبرة تنحدر من أعلى الربوة حتى أسفلها، فيقترح على أصدقائه مراقبة المكان والتعرّف على ما يحدث، "غير أنّه وجد منهما برودة ظاهرة، فقد كانا منهمكين في مضغ الجوز الهندي."[38].

يصرّ مراد على معرفة ما يدور حول المقبرة، وعن التجمّع الغريب الذي يشهده المكان من رجال ونساء، حيث صعد بين أشجار الزيتون، لمراقبة الوضع، وإذا به يرى تجمعا هائلا، وتفاعلا حماسيا، يحيل مباشرة على المخطط الثوري ضد الاستعمار"وأحسّ مراد بالدم يندفع اندفاعا

في عروقه. إذن، هذا هو تفسير اللغز الذي أمضه صباح اليوم. هذا التجمع لا يمكن أن يكون إلا من تنظيم المجاهدين، وسرعان ما تأكّد من صحة زعمه، فلقد سمع أحد الخطباء يتحدث عن الجهاد، ويوصي النساء والرجال بتشديد الكفاح ضد ا استعمار. ولم يفهم كلمة الاستعمار. إلاّ أنّه استنتج أنها تعني الاوربيين. إنها أوّل مرّة يسمع فيها هذه الكلمة. العدو كان بالنسبة له يتمثل في الأوربيين"[39].

وفي ملفوظ سردي آخر" وجاءه صوت خطيب آخر وهو يقول:( إننا نحتفل اليوم بالذكرى الثانية لأول نوفمبر، أيها الأخوات والإخوان،) وتساءل مراد عن أول نوفمبر وما يعنيه، لم هذا التاريخ بالضبط؟ إنه يعرف أسماء الأشهر كلها....نوفمبر هذا يخفي شيئا وراءه، ينبغي الاستفسار عنه."[40].

تتحقق صور /الوعي/و/النضج/والوطنية/لدى مراد، بكلّ أبعادها الدالة على الشعور بالذات، وبالهويّة الوطنية، لذا يظهر لنا مراد مفعما بالقوة والإرادة في البحث عن حقيقة ما يمر به الوطن من ويلات الاستعمار، كما يستغرب مراد من كلمتين لأول مرة يسمعهما (الاستعمار، والفاتح من نوفمبر)، وعلى الرغم من افتقاره للمعرفة، ويرجع ذلك لصغر سنه، إلاّ أنّه يبدو متفهما وناضجا، وواثقا من نفسه، فهو يفهم سبب تواجد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ومخططهم الاستيطاني، والطمع في خيرات الوطن.

إذ يتجلّى المعلم الأخير في وعيه ونضجه، والتحامه بالثورة، بعد سيطرة الرغبة الجامحة في رؤية المجاهدين"[41]، ومحاولة الالتحاق بهم، والانضمام إلى جماعة كانت متواجدة حول الخطباء، وذلك استطاع أن يتقرب من المقبرة حتى يتسنّى له رؤية والاستماع إلى ما يقوله الخطيب، ليجد نفسه أمام مجاهد حقيقي " هذا الشخص لا يمكن إلا أن يكون مجاهدا. والا فما الذي يعنيه هزاله وشحوبه؟ وما الذي تعنيه يده المبتورة؟ أليست هذه علامات على أنّ الرجل مجاهد؟ حبذا لو كان أحمد هنا إلى جانبه، فيؤكد له صحة ما يجول بذهنه الآن؟ ولاحظ مراد في هذه الجماعة بالذات أن النساء كن يزغردن بين الفينة والأخرى."[42].

تظهر على مراد مشاعر الحزن والتأثر، فتنهمر دموعه، متأثرا بخطبة الخطيب (المجاهد) " ولكن المهم بالنسبة له هو أنّه أدرك، أنّ شيئا ما قد بدأ يتحرّك في حياته. إنّه الوطن الذي يغني عنه في أناشيده دون أن يفهم معناه. منذ هذه اللحظة سوف يعرف مدى خطورة الأناشيد."[43].

ومن هنا، شعر مراد بالفرح والسرور لأنه قد فهم ما معنى الثورة، وما يشير إليه أول نوفمبر، وكان بودّه أن يخبر كلّ الأطفال عن هذا اليوم" فهو لم يعد ملكا له، بل على الأطفال كلهم أن يعرفوه، وإلا شعر بوطأة الحيرة على نفسه"[44]

لقد لمحت والدة مراد كلّ دلائل الحيرة والدهشة على ملامح ابنها، لكنّه لم يكشف لها عما رآه بالمقبرة، وظلّ ذلك المشهد متعلّقا بذهنه إلى أن دخل والده إلى البيت متجها نحو المذياع "وسرعان ما انطلق صوت مراد دون سابق انذار ليصف لوالدته ما رآه في الصباح. الطين، والأطفال، والرصاص ...كان يتلعثم في حديثه، مما حدا بوالدته إلى أن تلفه بالغطاء من جديد، ظنا منها أن نوبة من هذيان قد اعترته. غير أنه أزاح عنه الغطاء، وحدق فيها وابتسم. كانت غشاوة خفيفة من الدمع على عينيها، سرعان ما أدرك مراد أنها من دلائل الفرح"[45].

وفي ملفوظ سردي آخر يبرز الراوي فرحة مراد، بعد اكتشاف حقيقة والده" وأحس مراد بالدموع تستقر في أطراف عينيه من الفرح. والده مجاهد هو الآخر. وإلا فكيف يفسر هذا الاهتمام الشديد للتعرف على ما يجري في الوطن من أحداث"[46]

" وسرعان ما التمعت عيناه، فانحنى على الكراسة ليخط عليها:( من جبالنا طلع صوت الأحرار ينادينا. ينادينا للاستقلال. لاستقلال وطننا)"[47]

تقدّم هاته الملفوظات السردية أبعادا دالّة عن الوطنية، والاتحاد، والالتحام، والتفاعل والتضامن لأجل الوطن، كما تحيل دموع مراد على الفرح والسرور والاستغراب لحقيقة ومسار والده النضالي، واتصاله بالمجاهدين، ووصلته بالوطن والكفاح المسلّح، بحيث تتحقق وطنية والده من خلال تقليبه لأزرار المذياع لسماع آخر الأخبار عما يجري في الوطن من تحركات، وتغييرات وصراعات، ويمكن أن نوضح ذلك وفق ثنائية الحرية/الاستبداد انطلاقا من المربع السيميائي الآتي:

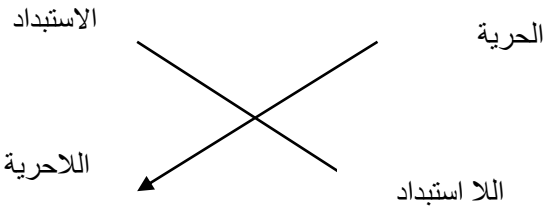


يسعى كلّا من مراد ووالده إلى تحقيق الحرية، في ظل الاستعمار، ودلت من خلال رفضهما للخنوع والخضوع لسلطة المستعمر، حيث يكتشف مراد حالة ووضع والده الذي يتسم

بالروح الوطنية، والتمسك بتأدية واجبه النضالي تجاه الوطن. وفي مواجهة الاستغلال والظلم للشعب الجزائري.

لقد احتلّ الطفل مكانة كبيرة -في فترة السبعينات والثمانينات-في الثورة الجزائرية وعلى مستوى الإبداع الجزائري في الرواية والمسرح والسنيما، والصوّر الفتوغرافية، وفي الملاحم وغيرها، وذلك لما حقّقه من مبادرات واهتمام، وإنجازات وتصدّي للاستعمار الفرنسي الذي يرجع إلى نضجه الثوري ووعيه السيّاسي لما يجري من صراعات سياسيّة وأحداث ثوريّة حيث استطاع أن يبرهن على وجوده وهويّته من خلال رفضه للآخر ولمساوماته والدفاع عن أرضه وانتماءه، ويتجلّى ذلك في عدم افشاء أسرار الثورة، ومساندة الثوار.

**الاحالات:**

1. بن مالك رشيد، محاضرات تحليل سيميائي لقصة عائشة للكاتب أحمد رضا حوحو، ص 4
2. كورتيس جوزيف، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية ترجمة جمال حضر منشورات الاختلاف ط/ الأولى 2007ص 57
3. تهانوي محمد علي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم تح علي دحروج ج1/أ ش مكتبة لبنان وناشرون 1996ص 816
4. صليبا جورج، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، ص 579
5. سويف، مصطفى، وآخرون، معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ،1975، ص 277.
6. إيغور كون، البحث عن الذات دراسة في شخصية ووعي الذات، ترجمة غسان نصر، دمشق، ص 5
7. معجم الأخلاق، ترجمة توفيق سلام، دار التقدم موسكو، ص 426
8. بشير بويجرة محمد، بنية الشخصية في الرواية الجزائرية منشورات أديب ص 76
9. بقطاش مرزاق، طيور في الظهيرة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981ص 17
10. المصدر نفسه، ص 17
11. المصدر، نفسه، ص 21
12. المصدر، نفسه، ص 27
13. المصدر نفسه، ص 29
14. الرواية، ص 31
15. المصدر نفسه، ص 34
16. المصدر، نفسه، ص38
17. المصدر، نفسه، ص 38
18. المصدر، نفسه، ص 50
19. المصدر، نفسه، ص 51

20. نفسه، ص53
21. نفسه، ص 54
22. نفسه، ص 59
23. الرواية، ص 59
24. الرواية، ص 64
25. الرواية، ص65
26. الرواية، ص 65
27. الرواية، ص 65
28. Geroupe d'entrevernes analyse sémiotique des textes presses univer de lyon 1884 p 55
29. طيور في الظهيرة، ص 66
30. المصدر نفسه ص 66
31. المصدر نفسه، ص 66
32. المصدر نفسه ص 67
33. المصدر نفسه ص67
34. نفسه ص 68
35. نفسه ص 77
36. نفسه ص 79
37. نفسه، ص 79
38. الرواية ص 108
39. المصدر نفسه، ص 109
40. المصدر نفسه، ص110
41. بشير بويجرة، محمد، بنية الشخصية في الرواية الجزائرية ص 80
42. الرواية، ص 110
43. المصدر نفسه ص 111
44. المصدر نفسه، ص 114
45. نفسه، ص 119
46. نفسه، ص 120
47. نفسه، ص 120